عودة المدينة

د. حياة خطابي- المغرب

نشر الليل عباءة الحداد على جسر المدينة التي ما استفاقت من حلمها حتى صفعتها أزمنة الغروب.

تأمل السماء من شرفة البيت مليا وقال:ما أحوج البلاد والعباد إلى الغيث! لو استقاموا على الطريق لأسقاهم ربهم ماء غدقا.

خارج الدار يحتقن بضباب الشتاء. الناس يرجون أن يخلف هذا الضباب مطرا، يستغيثون ولا ينزل مطر. كم مرة هتف:يا سماء أرسلي ماءك. اغسلي البصائر قبل الأبصار!!

أخذت قدماه تتحسسان الطريق. وقف في آخر الشارع، رمى الطرف بعيدا في الأفق. عجبا لظاهرة المقاهي الملتصقة في حميمية غريبة! هل تحولت المدينة إلى مقاه؟!

هل هجر الناس بيوتهم ليسكنوها؟!

تأمل الكراسي المصفوفة بنظام بديع. تعانق الطاولات بعشق. تفتح أذرعها للرائحين الغادين..إغراءاتها تتغلغل داخله بفظاعة..أذرعها تمتد كأذرع الأخطبوط تعتصر إرادته وتدهس حكمته.. ماذا عليه لو جالس هؤلاء سويعات؟ أيضيره شيء إن هو ارتمى بين أحضان هذه الأذرع المشرعة؟؟

جلس يريح أحلام رحالة أنهكه المسير فاستكان بأمان. ويسكت وجع آمال سقطت في فخ أوهام نسجتها على مر الأيام..لكن كلمات أمه تترامى إليه تحذره.. تحيله كتلة هلامية بشعة حين تقفز حروفها في جوف الليل لتصفع واقعه: أتطمئن لمن يختطف وقتك؟! يسرق زمنك؟!! يهبك راحة مزعومة بيد ويقطف الأمل بالأخرى؟!!

تلفت يمنة ويسرة.. الناس في المدينة غير آبهين. كل من حوله يلتفون زمرا زمرا لاهية قلوبهم.. بعضهم يحل الكلمات المتقاطعة. وبعضهم يبعث الرسائل عبر الهاتف النقال. وآخرون منشغلون برقص (الراب والهيبهوب والسميرف)[1]. أو منهمكون في التراسل العشوائي عبر الشبكة العنكبوتية..

أصبحت المدينة سوقا للفراغ. هنا يباع التاريخ. وهنا تباع الجغرافيا. ويلاه ما هذه الخسارة؟ أما انتهى

أوان الاستراحة؟! إنه في مدينة خالية.. مات سيف الله، وليس هناك من يحمل السيف!!

قفز من مقعده..يبحث عن طريقه..تتلجلج خطاه..تختلط عليه السبل..يمينا أم يسارا؟ يسارا أم يمينا؟..آه يا أمي! قد أضعتُك وأضعتُ الطريق. أين أنت أمي، ففي قلبك عنواني؟..أنت أنت الوعد الذي ضاع بين تقلبات الشفاه، والأمل الممتد بين ثنايا القلب. صرتِ يا أمي قضيتي ومصيري..يستحيل أن يرتاح لي جنب في غيابك!! سحبوا بساط الأمان والأمل من تحت قدميك الجريحتين ولم يعد أمامنا إلا الأحلام..داء كل عجز ونكوص.. ونحن نهاب ألم الجسد، ولا نصبر على العنت والبلوى وتباريح العذاب!! لكن ابنك- يا أماه- يملك عزيمة فولاذية هيهات أن تذوب وتنصهر!!.. لديك أمي، البلسم الذي يحتاجه جرحي..فأغيثيني! ابقي دوما قوة دفع لا قوة إحباط ولن أرضى أبدا بفتات حبك..وهل الحب يُجزأ؟

القضبان التي تسيّج الباب المعدني تحفّز همته..أنفاس الجدران تسحق عظامه، صحيح، ولكنها تشحذ إرادته، وتنقله إلى بؤرة عاصفة لا تهدأ مذ وطئت قدماه المكان..

عاد كفراشة خرجت لتوها من شرنقة محاطة بالظلام لتبصر النور من جديد..عاد ليرتدي شبابه الذي حُصر أزمانا في زجاجة معطرة بالمرار..تُحيط ذكريات الأمس تلافيفَ دماغه المتخم بالصور..تذكّر ليالي الوصال ورائحة الشتاء وأغنيةً للمطر حُفرت في قلب الزمان..لمَ يتعثر تدفق الغوث عبر انهماراتَ الخطوب؟ لمَ يتوقف الغيث والعباد حالهم أحوجَ ما يكونون إلى الارتواء؟ أمِنْ تأثير الصمت والسكون؟ ألأن الشمس علمتنا أن نرضى بالرحيل؟ ألأن الثقوب السوداء ابتلعت المواسم حتى قوس المطر؟ ألأن سيف الله رحل وما عاد هناك من يحمل السيف؟

التمرد يسكنه، والثورة تقض مضجعه، غدا عاجزا عن الصمت.. وليكن بعد ما يكون! هنا في المدينة من يعلن الاستكانة تفرش له الورود..ومن يشاكس مصيره الخندق..ولكن، أليس من الخندق انبثق النصر؟ بلى.. وسينبثق إن شاء الله، وليكن بعد ما يكون، سيحفر ممرا لأمه، يعض عليه بالنواجذ.. ولتهبي يا رياح، ولتأخذي الأحلام الزائفة!

أخذ الإزميل وضرب الحائط يفتح فوهة يتملص منها. صوت الضربات ينادي:الله حق، الموت حق، اللاءات حق، الحق حق..

وترجيع الصدى يهتف:كم بين حق وحق..

الفجر خلاصه، وسيبحث أبدا عن أنفاس الفجر، سيحوك مواسم الحناء بتعاويذ الصباح القريب، سيقتطف الأزهار المتفتحة من رحم الضوء، وسيطير مع الفراش الذي ينز من ينابيع الحلم..

أمي، أيها الحديث الذي لم ينته، ها أنا ذا قادم لنكمل بقية الحكاية.. هل يمكن أن ينبت جسد من جسد وأن تفرخ ذاكرة جديدة من ذاكرة قديمة؟..فلتعصفي يا رياح الغضب..أغرقيني، واملئي قلبي عزما، واملئي جوي لهيبا..تحيط بي العتمة، وتتقاذفني الأمواج، والناس في المدينة لاهون..لكن مركبي تبحر دوما إليك..يشدني صوتك..يدغدغ أشواقي..يناغيني، يحنو عليّ صدرك فأنتشي..جار البحث عنك أماه وأنا قادم إليك.. احتويني ففي قلبك عنواني..

حمل الإزميل بكلتا يديه، وواصل الضرب في جدار الإسمنت بقوة أكبر. الأصوات تأتيه كهمس يتهادى في الضياع..من قلب المحنة ينشق الجدار..الأصوات تتسرب إليه.. نداء الإزميل يقود الأقدام المغروسة بالوهن..الأذن التي أدمنت الإهمال دهورا يتفتق صممها، ويتهاوى الصمت..تتهالك الجدران كزجاج مكسور..

وتعالت الأصوات في كل مكان.. من كل مكان، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وصبت السماء على العباد دلاء من الغيث..■

(١) أنواع من الرقص الغربي الأمريكي التعبيري.